رحلات في ديار الشام في القرن الثامن عشر الهجري :

٣ ـ اردان رحلة الاحسان
في الرحلة إلى جبل لبنان
لمصطفى البكري الصديقي
(١٠٩٩ هـ - ١١٦٢ هـ -- ١٦٨٧ م - ١٧٤٨ م)
للأستاذ أحمد سامح الخالدي

اشتغال الشيخ بعمارة داره بالقدس وولادة ابنته :

« وكنا لما اشترينا الدار شرعنا في العمارة ، فأشغلنا الأخ بنقل التراب ورفع الحجارة ، لكي تلين منه نفسه الغدارة المكارة . ولما دخل شهر الصيام والقيام الموجب النضارة تأهل المحل السفلي للجلوس فيه ، دون إتمام القصارة .

« وحين ودع وسار بمسار سحبها غزار ، وقد وفدت علينا من الغيوب العزية البُنية الرشيدة السعيدة الفريدة والجوهرة الوحيدة ، التي وقعت لتسميتها الإشارة الشريفة (علما) ، جعلها الله ممن قدرها لديه سما ، وذلك في السادس والعشرين من شوال المبارك ، فتلقاها الفؤاد فرحاً بها لكونها هدية المولى تعالى وتبارك ورأيت كعبها كقصيدة كعب بن زهير لا زالت مظهراً للبر حسنة السير كثيرة الخير .

« وقد حضر لدينا رابع يوم ذي القعدة الحرام الأخ السعيد محمد سعيد البصري ذو الإقدام ، وكان ذلك يوم عقيقة [1] ابنتي ، المذكورة المحروسة ، وكان قدومه من البصرة إلى حلب المأنوسة . ولما وصل كنا مع الإخوان خارج البلد .

الزيارة العلمية الثانية عن طريق الخليل وعسقلان :

ولما دخلت سنة (١١٤٢ هـ) عزمنا على زيارة الخليل ، ومن هنا يفقد الزيارة العلمية ، وحين دخلت عاشورا اجتمع لدينا من الإخوان أخدان ، وتوجهنا عن طريق (بني حسن) [2] لأنه طريق أمين ومسلك وعر بالأمان حسن ، ونزلنا عند الخلاحلة [1] في (معنين) وسرنا صباحاً للمدينة بقلب رهين وعندما أشرفنا على الحرم قرأنا على الإقدام فاتحة الكتاب وتقدمنا إلى المقام وزرنا الأنبياء ، وبدأنا بوالدهم شيخ المرسلين التام (ابرهيم الخليل) وثنيت بولده سيدي اسحق النيور ، ثم أتنيت مقام سيدي يعقوب النوث وختمت بسيدي يوسف بدر التمام ، ونزلت في التكية القادرية [2] عند باب الحرم الشريف ، لنحظى في أغلب الأحيان بالزيارة المنتجة التشريف . وكانت الكروم [3] على أوائلها لم تتكامل حلاوتها في غلائلها . وبعد ما أقمنا ثلاثة أيام في الجوار نتردد صباحاً ومساء على السادة الأطهار ودعنا ، وقصدنا مسجد الميقين ، وتوجهنا إلى مقام سيدنا لوط . وعندنا في الصباح على مدينة الفلاج وزرنا حماة تلك البطاح ونجدنا (بيت جبريل) [4] وبتنا فيها ، وسرنا إلى (الفالوجة) وزرنا أحدها النزيل ، وصلينا الجمعة فيها وخطيبنا الأخ المراعي الشيخ عبد الحماعي [5] وكان وكان مرادنا زيارة عسقلان فأخبرنا بخراب ما حولها من عمران [6] ، وفي الصباح طرنا بلا جناح وطلبنا دليل في تلك المسالك يعرفنا إلى (المسمية) بالدرب السالك ، فانتحى المجذوب الشيخ ديب لذلك ، ولما توسطنا البرية ، مثل هذه قبة سيدنا صالح فقرأت الفاتحة ، وتجارت علينا من بعد خيل أعراب بهم في تلك الصحارى أذية أغراب ، فقلت لمن يحمل الإشارة سر على الجادة ولا تخف غارة ، فسقط عن دابته كبيرهم وانتكس وشرد مركوبه ، وبقصده انعكس ، ثم لحقونا (للقسطينة)

(١) عقف الشيء يعقفه عطفه وعرجه . والعقاف داء في قوائم الشاة تعوج منه .

(٢) اسم لفضاء يشمل قرى المالحة ، وبتر ، والولجة ، والرأس الخ إلى الجنوب الغربي من القدس ، وفي فلسطين أقضية باسم بني صعب ، وبني صرة وبني مالك الخ بأسماء القبائل التي نزلت البلاد .

(١) هم أهل خلخول قرية إلى يسار السالك إلى الخليل .

(٢) في الأنس الجليل ج ٢ — ٤٢٦ ، ٤٢٧ « إن الزاوية القادرية بظاهر البلد . وفي الخليل زوايا عدة منها زاوية الشيخ الزي ، وزاوية الشيخ عبد الرحمن الأرزروي ، وزاوية البسطامية ، وزاوية السمانية وزاوية الشيخ عمر المجرد ، وزاوية أبي عقافة ، ورباط الطواشي ، وزاوية شيخون ، ورباط مكي ، وزاويه الشيخ رضوان ، وزاوية الشيخ خضر ، وزاوية الصلاطفة ، وهي داخل الزاوية الأدهمية ، وزاوية الراعي ، وزاوية الشيخ علي كنفوش الأدهمي ، وزاوية الشيخ محمد البيضة . وزاوية الوقع ، وزاوية الشيخ ابرهيم الحنفي ، وزاوية أبي كمال بظاهر المدينة ، ورباط الحماعيلي ، وزاوية الخضر وزاوية الأعمش الخ » .

(٣) يستدل من هذا أن كروم العنب كانت تحيط بالخليل كما هو الحال الآن

(٤) بيت جبرين وهي بين الخليل والفالوجة .

(٥) من عائلة مقدسية كنانية ، تعرف ببيت الخطيب ، وعليها الخطابة في المسجد الأقصى .

(٦) قامت بقربها الآن مدينة المجدل

وجاءوا معتذرين موثبنا فى (المسمية) بفوس سمية ، وجد بنا إلى قرية (يُبْنى) المقول فيها أن مثلها ما يبنى ، وعمدنا إلى جامع سيدى عبد الرحمن أبى هريرة ، واختلف فى اسمه الشريف ، المحدثون ، والذى رجح الأعيان عبد الرحمن ، ورجح صاحب القاموس عبد الله . وبعد ما صليت الضحى ، قلت :

قصور الولا من رامها أن له تبنى عليه بابن يثنى الركاب إلى يبنى

وبعد الزيارة توجهنا إلى (يازور) وزرنا سيدى حيدرة المنسوب لسيدى على الطلبى ، وبتنا بالقرية داخل الجامع المأنوس المعمور اللامع ، وفى الصباح قصدنا قرة العين الحسن الأمنع سيدى سلمة بن الأكوع الصحابى (١) الهاب ، رغب الزيارة .

ارتقيت الطبقة طارقاً من باب الالتجاء الحلقة ، فانفتح الباب بمعونة الوهاب فقلت فى مدحه :

شرف بذكر الحب خلى مسمعى واعد على حديثه يا مسمعى
وأدر كؤوس خمور سلمى جهرة فلعلها تشفى فؤاداً موجعى
وإذا سكرت فلا تلمنى انني فى حال شربى لا أفيق ولا أعى

وعدنا إلى (يازور) حيث البسط يفور ، وما مكنا خليلها الخ من المسير نحو (يافا) ذات الوجه النظير ، وفى صباح يوم الثلاثاء حللناها واللحظ ينبعث انتعاشاً وبتنا فى دار أبى سليمان العواد وثنى الأخ الخواجه أحمد المنجاز العواد إلى الوداد . وسرنا يوم الخميس قبل بزوغ الشمس إلى المقام الجليلى ، ووفد بعد الاستقرار ، الحاج حسن بن الشيخ مقلد وبات معنا . وأقمنا فى ذلك المقام المبارك الأنور ثانى يوم ووفد علينا قوم أحبة ، وختمنا الربعة الشريفة تلك الحضرة المنيفة ، وأهدينا ثوابها للمزور المشهور ، وللأخ السيد محمد السلفيتى المشكور ، وتوجهنا بعد صلاة الفجر ووداع الهزار إلى (كفر سابا) وزرنا خباب بنامين شقيق سيدى يوسف الصديق ، وكذلك السيد الصحابى سراقة ؛ وعند الوصول إلى (كور) ، ووفد علينا يزور الحاج يعقوب السندى ، وقصدنا فى الصباح شرب أقداح اصطباح ، عند بستان تسامى ضمن هاتيك البطاح ، وامتد زمان الانشراح إلى أن قرأنا ورد العصر ، داخل قبته الصغيرة ، الكبيرة المراح ، وكان الحاج يعقوب ممن حضر وناح ، وتذكرت الأخ المرحوم السيد محمد العباسى [السلفيتى] .

« وأشرت على الأخ الحاج حسن منح فى الحب فهماً ، أن يغرس فى صفحاته كرماً ، وبعض أشجار تين فأبدى عزماً ، وجمع فى الأمر جزماً ، وفعل ما به أشرنا .

« وبعد أن استوفينا أيام الإقامة فيها توجهنا إلى نابلس المحمية ، ونزلنا على عادتنا فى (الدرويشية) والأخ الحاج حسن معنا . وبعد أيام الإقامة ، ودعنا ، وتوجهنا (جاعين) وقصدنا قرية (سلفيت) وزرت ضريح الأخ المرحوم السيد محمد السلفيتى ، وختمنا الربعة الشريفة لديه . وقلت :

ما هذه دار البقاء روحى روحى إلى باب اللقا المفتوح

« وأتينا دير غسان ، بعزم راجح الميزان الموفق الخ . بين الزيود ، فلتيسر الاصلاح ، وتوجهنا إلى زيارة رجال (سوفا) المشهورين وبت لديهم ليلة الجمعة فى العشر الأول من صفر . ولم نلبث أن سرنا إلى (عابود) ومنها إلى (شقبة) ثم أتينا مزار (عنّير) وجلسنا فى محله المنير ، ودعانا إلى (الجانية) الشيخ صالح الدوبانى ، وعدنا للديار المقدسة فى نصف صفر الخير .

« وكان الأخ محمد سعيد البصرى ألح فى طلب مقامة عراقية على نمط غير نمط الرومية فشرعت فيها وسميتها « المقامة العراقية والمدامة الإشراقية ، وتمت فى شهر ربيع الأول ، وجاءنى زائراً بعض المغاربة بصلوات سيدى على بن محمد وفا ، وكنت شرعت فى شرح عليها فى الديار الرومية [أى التركية] ولكن النسخة تهدم بناء بعض حروفها ، فأجبته إلى طلبته وسميتها (جريدة المآرب ومزيدة كل شارب شارب) . وجردت الهمة وشددت العزمة فى منتصف هذا العام إلى تبييض الجزء الثانى من (شرح الورد السبحانى المسمى بالضيا الشمسى على الفتح القدسى) وعرضت كراساً منه على الأخ محمد سعيد ليتأمل فيه وجاءنى فى الصباح وممه معترفاً بعجزه .

ورأيت الأخ محمد سعيد عنده بعض فتور ، ونحن مع جماعة فى جبل الطور ، نخاطبته ويلديه موسى ناصحاً وقلت :

خليلى عن شوق ركابكما حثا إذا رمتما فى الروع أن تدركا نفثا

ولقد جاءنى الأخ محمد سعيد مرور الفرار فرقمت سطوراً فى قرطاس ورفعتها له :

وجوه الورى من واجهوا أشرف الورى
وللأثر السامى اقتفوا حالة السرى الخ

« وجاءنى من مدينة الخليل الشيخ محمد النزعانى فرآنى

(١) مقامه فى قرية سلمة وبه سميت .